موارد عصر الرسالة (١)
الغنائم نموذجاً

الأستاذ: محسن الأسدي

من المسائل التي استأثرت بالبحث والدراسة الموارد المالية في العصر الأول للرسالة، ودولته الأولى، التي أنشأها رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة المنورة بعد هجرته المباركة إليها من مكة المكرمة، وكان منها الخراج والزكاة والجزية.

وكذا الغنائم والفيء والنفل على كلام في أنَّ هذه الثلاثة واحدة أو مختلفة كما يأتي، وإن اخترتُها دون غيرها، إلاّ أنَّ الغنائم احتلّت المجال الأكبر في هذه المقالة لما لها من الأهمية والآثار الخطيرة في بعض فصولها على الساحة يومذاك.

إنَّ الغنائم تعدُّ قديماً وحديثاً نتيجةً من نتائج أي معركة، فهناك أموال وهناك أسلحة وقد يكون هناك أسرى وسبايا تتخلف من طرفي القتال، يفوز بها عادةً المنتصر؛ قد تعوض ما خسره في الإعداد للمعركة، وقد تدفع المقاتلين غالباً للاستبسال، وهكذا هو القتال وقانونه وأحكامه تستباح فيه النفوس، وتسفك فيه الدماء، وتنتهك فيه الأعراض، وتصادر الأموال، ويتحول الواقع فيه إلى فوضى، لا مكان فيه لقيم ولا مبادئ، تتحكم فيه إرادة المقاتلين وأهواؤهم و.. وبالذات حين يبتعد أو يخلو من شرائع السماء وأخلاقها وآدابها، وبالتالي فالغنم للمنتصر فيها والغرم على المنهزم.. وهكذا حتى شكلت الغنائم عنصراً هاماً بل ورئيسياً في حياة الغزاة، حين جعلها مورداً للعيش والتسلط والانتقام..

وإنسان الجزيرة العربية والصحارى لا يختلف عن بقية الشعوب في السعي لتحقيقها، ولو عبر وسائل في أغلبها غير مشروعة كالغزو والسلب والسرقة بالقوة، والسطو واللصوصية.. وكلها تنطلق من نظرتهم إلى القتال، التي يمكننا تلخيصها، أنه لا فقط مثار تفاخر بينهم، وثأر وتشفٍّ، بل هو وسيلة لجمع الغنائم مالاً وأسرى وسبايا، يعيش بها فريق ويثرى،

ويتقوّى بها آخرون.. يقول الدكتور محمد زهير المشارقة: «لقد كان الباعث الأساسي على الغزو عند العرب في الجاهلية وما تلاها من عصور هو حبّ الكسب والحصول على الغنائم التي هي قوام عيشهم أو الثأر والانتقام.[١]

فالغنيمة هي الباعث الرئيس لهم على شنِّ الحرب والدخول في القتال مع القبائل الأخرى الآمنة ، وإغارة بعضهم القوي على بعضهم الضعيف؛ ليسلبه ماله، أو الإغارة على قوافل مسافرة للحج والزيارة أو التجارة، دون قانون يحكمهم أو وازع أخلاقيٍّ يمنعهم، ويستحوذ أيٌّ مقاتل منهم على ما يحصل عليه من الغنائم، ثمَّ تغير الأمر إلى أنَّ قبائل العرب في الجاهلية إذا حاربت وانتصر بعضها على بعض؛ أخذَت الغنائم، وكانت عندهم تتألف من الإبل والخيل والأغنام والسلاح المكّون من الرمح والسيف والسهام، وكذا بيوت الشعر وما فيها... ووزَّعَتْها على المحاربين، إلا حصة يحظى بها زعيم القبيلة، ففي قول: إنهم كانوا في الجاهلية إذا غزا بعضهم بعضاً، وغنموا، أخذ الرئيس أو القائد ربع الغنيمة خالصاً دون أصحابه، أو تطلق يده في الغنائم حتى يرضى، وهي تشكل أجزاءً كبيرةً يستأثر بها ولا يجرؤ أحدٌ السؤال عنها، ولهذا قال الشاعر:

لَكَ الْمِرْبَاعُ مِنْها والصَّفَايا وَحُكْمُكَ وَالنَّشِيطَةُ وَالْفُضُولُ

---

١. الحياة الاجتماعية عند البدو في الوطن العربي، محمد زهير المشارقة.

والفرق اختلاف القدر بينها.

المرباع وهو الربع: قال قطرب: المرباع: الربع، والمعشار: العشر، ولم يسمع في غيرهما، ومنه قول النبيﷺ لعدي بن حاتم قبل إسلامه: «... إيهِ يا عديُّ بن حاتم،... أو لم تكن تسير في قومك بالمِرباع؟ قلت: بلى، قال: فإنَّ ذلك لم يكن يحلُّ لك في دينك، أو إنك لتأكل المرباع وهو لا يحلّ لك في دينك قلتُ: أجل والله».

فقد كان عدي كما يحدث هو عن نفسه:..«أما أنا فكنت امرءاً شريفاً، وكنت نصرانياً، وكنت أسير في قومي بالمرباع..»، أي آخذ الربع من الغنائم؛ لأني سيدهم.

الصفي: ما كان يصطفيه الرئيس في الحرب قبل الإسلام لنفسه من الغنيمة دون أصحابه، وما لا يستقيم أن يقسم على الجيش.

النشيطة من الغنيمة: ما يصيبه القوم قبل أن يصلوا إلى الحي الذي يريدون الإغارة عليه فينشطه الرئيس من بين أيديهم ويأخذه قبل القسمة...

الفضول من الغنيمة: بقايا تبقى منها لا تستقيم قسمتها على الجيش لقلتها وكثرة الجيش فيختص بها رئيس الجيش...[1]

---

١. أنظر الموسوعة الكويتية الجزء:٢٠، الخمس؛ والسيرةالنبوية، لابن هشام٤: ٢٢٥؛ ومعاجم اللغة، مادة ربع من القاموس، واللسان، وتاج العروس...

وقد بقي هذا الراسب بأقسامه المذكورة معروفاً في نفوس صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، أن يبقى بين أغنيائهم وأقويائهم يتكاثرون به؛ لأنهم أهل رياسة ودولة وغلبة، فيكون دولة جاهلية بينهم. بأن يستأثروا بالفيء والغنيمة وكانوا يقولون: من عزّ بزّ ..؛ فلا يصيب الفقراء واليتامى والمساكين منه شيءٌ، بقي هذا قبل نزول آيات الغنيمة والفيء وأحكامها، بدليل ما ذُكر أنَّ آية الفيء، ٧ من سورة الحشر نزلت في رؤساء المسلمين بعد أن قالوا له: يا رسول الله خذ صفيك والربع، ودعنا والباقي، فهكذا كنا نفعل في الجاهلية، وأنشدوا:

لَكَ الْمِرْبَاعُ مِنْهَا والصَّفَايا وَحُكْمُكَ وَالنَّشِيطَةُ وَالْفُضُولُ

فنزلت الآية، فقالت الصحابة: سمعاً وطاعة لأمر الله وأمر رسوله...

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾. أي ما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه وارضوا به وما أمركم به فافعلوه، وما نهاكم عنه فانتهوا عنه، فإنه لا يأمر ولا ينهى إلاّ عن أمر الله.[1]

فبعد الإسلام صار لها وضع خاص بعد أن دخلت في منظومة فريضة الجهاد المتضمنة لشروطه وقواعده وأحكامه وأهدافه، وما يترتب عليه من نتائج، وحين حدد لها أسباباً ودوافع؛ بعيداً عن الغزوات التي

---

١. تفسير الكشاف، للزمخشري؛ وتفسير مجمع البيان، للطبرسي: الآية، بتلخيص.

ليس لها هدف إلا القتل والسلب والنهب..، حتى غدت سلوكاً ذميماً ومظهراً ظالماً من مظاهر فساد الجاهلية الأولى، فجاءت الرسالة الخاتمة لتمنع ذلك كله وتطيح به وبمن يفسدون ويعتدون: ﴿وَ يَسْعَوْنَ فِي الأرْضِ فَسَاداً وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾. وما قول إخوة يوسف مع ما صدر منهم إزاء أخيهم، إلاّ أنه خلق الديانات التي نادت به: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلأرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾.[1]

كما شرعت أحكاماً لقطع دابر الفساد في المجتمعات، ومنها الحكم على من ثبتت عليه السرقة وبلا حاجة بقطع يده:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.[2]

فالجهاد في الإسلام وما ينتج من غنائم ليس فساداً ولا نهباً كما هو ديدن المقاتلين في العصر الجاهلي، حيث كانت النُّهبة والنهبى عندهم تساوق الغنيمة والمغنم.. وقد نهى النبيّ صلى الله عليه وآله نهياً شديداً عن النهب والنهبى في أحاديث، منها:

«من انتهب نهبة فليس منّا»، «إنّ النهبة لا تَحِلّ»، «نهى النبيُّ صلى الله عليه وآله عن النُّهبَى والمُثلة». و الامتناع عن النهب غدت من شروط البيعة؛ كما جاء عن الصحابي عبادة بن الصامت: «بايعنا النبيّ صلى الله عليه وآله أن لا ننتهب».

---

١. سورة يوسف : ٧٣.

٢ المائدة : ٣٨ .

وكان من شأن الجاهلية انتهاب ما يحصل لهم من الغارات، فوقعت البيعة على الزجر عن ذلك.

وعن رجل من الأنصار قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله فأصاب الناس حاجة شديدة وجهدٌ، وأصابوا غنماً فانتهبوها، فإنّ قدورنا لتغلي، إذ جاء رسول الله يمشي متّكئاً على قوسه فأكفأ قدورنا بقوسه، ثمّ جعل يُرمِّل اللحم بالتراب، ثمّ قال: «إنّ النُّهبة ليست بأحلَّ من الميتة».[1]

والغنائم التي تنشأ من النصر في ذلك القتال ذي الهدف الواضح: ﴿...حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾،[2] ليست لصوصية ولا سرقة، فهدف المسلمين في معارك الإسلام الكبرى وبالذات في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن بحثاً عن الغنائم والإسلاب، بل هو دعوة لله ودينه ومنهجه للحياة، ولرفع الموانع عن طريق إيصالها إلى الناس، وبالتالي فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر!

يقول الشيخ محمد الغزالي:.. وقد بيّنا في كتبنا الأخرى بالاستدلال العلمي والاستقراء التاريخي؛ أنّ الحروب التي اشتبك فيها الإسلام ـ على عهد الرسول صلى الله عليه وآله وخلفائه ـ كانت فريضة لحماية الحق، وردّ المظالم، وقمع

---

١. أنظر كتاب الفتن في سنن ابن ماجة٢: ٣٩٣٧ و٢٩٣٨؛ وباب النُّهبى بغير إذن صاحبه في صحيح البخاري كتاب المظالم:٢٣٤٢؛ وسنن أبي داود٣ : ٦٦ برقم ٢٧٠٥؛ والتاج الجامع للأصول، تأليف الشيخ منصور علي ناصف٤ : ٣٧٤.

٢. الأنفال : ٣٩ .

العدوان، وكسر الجبابرة.[١]

ثمَّ إنَّ دعوة الإسلام للجهاد بأن يبذل المجاهدون أموالهم وأنفسهم، وهو بذل قد يتجاوز ما يحصلون عليه من غنائم، هذا إن حصلت، والتنزيل العزيز ينطق بذلك ويبين أهدافاً نبيلة على رأسها أنه جهاد في سبيل الله لا جهاد لصوصية وسرقة ونهب.. ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.[٢]

وينتظرون عطاء السماء، وقد وعدتهم أنَّ لهم الجنة: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾.[٣]

كما نسب لرسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**ما من غازية تغزو في سبيل الله، فيصيبون الغنيمة، إلاّ تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تمِّ لهم أجرهم**».[٤]

ثمَّ إنّ ملكية الأنفال التي تتخلف عن هذا الجهاد- يقول سيد قطب- "قد بتّ في أمرها بأن ردت إلى الله والرسول، وجرّد منها المجاهدون

---

١. فقه السيرة ١ : ٢١٧.

٢. التوبة : ٤١.

٣. التوبة : ١١١.

٤. صحيح مسلم، باب بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم، ١٩٠٦.

لتخلص نيتهم وحركتهم لله.. مع هذا وذلك فإن المنهج القرآني الرباني يواجه الواقع الفعلي بالأحكام المنظمة له. فهناك غنائم وهناك محاربون. وهؤلاء المحاربون يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم: هم يتطوعون للجهاد، وهم يجهزون أنفسهم على نفقتهم الخاصة؛ وهم يجهزون غيرهم من المجاهدين الذين لا يجدون ما ينفقون.. ثم هم يغنمون من المعركة غنائم. يغنمونها بصبرهم وثباتهم وبلائهم في الجهاد.. ولقد خلص الله نفوسهم وقلوبهم من أن يكون فيها شيء يحيك من شأن هذه الغنائم، فرد ملكيتها ابتداء لله ورسوله.. وهكذا لم يعد من بأس في إعطائهم نصيبهم من هذه الغنائم ـ وهم يشعرون أنهم إنما يعطيهم الله ورسوله ـ فيلبي هذا الإعطاء حاجتهم الواقعية، ومشاعرهم البشرية، دون أن ينشأ عنه محظور من التكالب عليه، والتنازع فيه، بعد ذلك الحسم الذي جاء في أول السورة، إنه منهج الله الذي يعلم طبيعة البشر؛ ويعاملهم بهذا المنهج المتوازن المتكامل، الذي يلبي حاجات الواقع كما يلبي مشاعر البشر؛ وفي الوقت ذاته يتقي فساد الضمائر وفساد المجتمع، من أجل تلك المغانم".[١]

كلُّ هذا حتى يبقى هدف المقاتلين المسلمين متمثلاً بردّ الظلم والعدوان، وإقامة معالم الحق، والدفاع عن دينهم وأنفسهم، واسترجاعاً لأموالهم التي انتزعها منهم مشركو مكة حين عذبوهم وأخرجوهم من

---

١. في ظلال القرآن، أول سورة الأنفال.

ديارهم.. ونزعاً لوسيلة أساسية لقوة أعدائهم من مشركي مكة ومن حولها وهي المال منقولاً وغير منقول، التي يعتمدون عليها في ملاحقة المسلمين وتهديدهم، وفي محاربة الإسلام والتضييق على دعوته واستضعاف أهله وأتباعه وإذلالهم.. فالمتأمل فيما وقع من غزوات وأحداث قتالية أو غير قتاليةأثناء السيرة النبوية، منها معركة بدر الكبرى، وسببها وهدفها استرداد ما نهبته قريش ممن هاجر من المسلمين نتيجة تعذيبهم أو التضييق عليهم أو إذلالهم...، وحتى فتح مكة الذي وقع نتيجة غدر المشركين ونقضهم الصلح مع النبيﷺ واعتدائهم على حلفائه، وبالتالي لا يجدها وقعت من أجل التوسع وبسط النفوذ على بقاع وأناس آخرين، بمعنى أنها لم تكن لها أهداف توسعية أبداً، وكل ما في الأمر أنها وقعت لما ذكرناه، و دفاعاً عن دعوتهم وأنفسهم وحرماتهم، ضدَّ من لم يتوقف عن التآمر عليهم والإطاحة بهم ووأد دينهم الحنيف وطمس معالمه وأهدافه ومبادئه، وهم مشركو الجزيرة العربية، ويهود المدينة، ونصارى الروم ونحوهم، وقد راحو جميعاً يستشعرون خطورة الدين الجديد وأتباعه عليهم وعلى مصالحهم غير المشروعة وأطماعهم..

وحتى تسمية بعض تلك الوقائع فتحاً كما هو فتح مكة، أو غزواً (غزوة بدر الكبرى، غزوة أحد، غزوة الخندق...) حتى عدّوا ٢٧ غزوةً، فهذه التسمية لا تغير أهداف تلك الوقائع، وتحولها إلى أهداف توسعية سلطوية، فالغزوة مع إطارها الواسع في اللغة الذي يطلق اسم "غزوة"

على كل خروج، مهما كانت دوافعه، ومنه الخروج إلى معركة دفاعيةً كانت أو هجوميةً، وقد سميت كل من معركتي أحد و الخندق غزوة، وهما دفاعيتان بامتياز ووضوح من جهة المسلمين ضد المعتدين، الذين جهزوا أنفسهم وتوجهوا نحو المدينة المنورة حيث رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون للقضاء عليهم. بعد أن حقق المسلمون انتصارهم في بدر، وقد قتل الله بأيديهم أئمة الكفر من قريش. فأخذ أبو سفيان يؤلب على المسلمين لأخذ الثأر. وكانت القافلة التي تحمل متاجر قريش قد نجت فلم تقع في أيدي المسلمين؛ فتآمر المشركون على رصد ما فيها من أموال لحرب المسلمين، وقد جمع قريباً من ثلاثة آلاف من قريش وأحلافهم والأحابيش، وخرج بهم في شوال من السنة الثالثة للهجرة؛ وجاءوا بنسائهم ليحاموا عنهن ولا يفروا. ثم أقبل بهم نحو المدينة، فنزل قريباً من جبل أحد..

وأما في الساحة المسلمة فكان هناك رأيان: الخروج لملاقاتهم أو المكوث في المدينة لقتالهم، واستشار رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه: «أيخرج إليهم، أم يمكث في المدينة»؟ وكان رأيه ألاَّ يخرجوا من المدينة، وأن يتحصنوا بها؛ فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت... ثم استقر الرأي أخيراً على الخروج! فقالوا: يا رسول الله، إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه..»، ومع هذا

سميت وقعة أحد غزوة.

فكون تسمية بعض المعارك غزواً لا يعني أن المسلمين ساروا لقتال أعدائهم وانتهابهم في ديارهم كما هو واحد من معاني الغزو..

فهي في اللغة تطلق على معانٍ؛ منها: غَزَا العدوَّ؛ إذا خرج إلى محاربتهم، أو سار إلى قتالهم وانتهابهم في ديارهم. وغزا الشيءَ غزواً: طلبه وقصده، و "غَزَاهُ غزواً" إذا أراده وطلبه.. الغزو القصد وكذلك المغزى، ثم أطلق على قصد مخصوص وهو: الإيقاع بالعدو.[١]

وقد ذكرها التنزيل العزيز مرةً واحدةً: ﴿يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي ٱلأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.[٢]

يقول الطبري في تفسيره: أو كان خروجهم من بلادهم غزاة، فهلكوا فماتوا في سفرهم، أو قتلوا في غزوهم..

إضافةً إلى ذلك فإنَّ الإسلام لم يتخذ القتال وسيلة قوة ولا المال وسيلة إغراء لنشر تعاليمه في الجزيرة العربية وما حولها، فقد آمن به جمع

---

١. أنظر مفردات الراغب الأصفهاني، والمعجم الوسيط: ٦٥٢؛ وتاج العروس شرح القاموس١٥٨/٣٩ في (غزا العدو)؛ ولسان العرب؛ تفسير البحر المحيط، أبوحيان (ت ٧٥٤ هـ).

٢. سورة آل عمران: ١٥٦.

من رجال قريش ومن مستضعفي مكة حينما كان رسول الله صلى الله عليه وآله فيها وحيداً لاسلاح معه ولا مال، فيما كان جمع آخر من أهل يثرب البعيدة عن مكة يسعون للإيمان بنبوته ودعوته، غير مبالين بما يسمعون ويرون ما يعانيه أتباعه صلى الله عليه وآله من اضطهاد قريش وتعذيبها عبر أشكال من العذاب، بل لم يكتفوا بإسلامهم فراحوا يدعون أهليهم وأحباءهم لاعتناقه وتبليغ آياته وأحكامه وقيمه في مدينتهم يثرب، وأن الذين دخلوا دائرة الإسلام خلال سنتي السلم التي تلت صلح الحديبية بين رسول الله صلى الله عليه وآله ومشركي مكة أكثر بكثير من الذين دخلوها خلال عشرين سنة من بداية الدعوة حتى الصلح، ولا ننسى عام الوفود، حين وفدت عليه صلى الله عليه وآله القبائل وزعماؤها من اليمن وغيرها ملبيةً دعوته صلى الله عليه وآله معلنةً إسلامها.

هذا وأنَّ الغنيمة في الإسلام لم تكن في كل وقت، كلما يشتهي المقاتل مالاً أو طعاماً أو متاعاً، أو تلبيةً لرغبته في النهب والسرقة والانتقام.. يغزو؛ ليسدَّ حاجته وجوعته ورغبته، فهي في الإسلام منضبطة بأحكام الجهاد التي ذكرتها كتب الفقه، ومحدودة ومقيدة بوقت الحرب والجهاد في سبيل الله لا غير، وفي الحرب ضدَّ الكفار والمشركين، لا فيما وقع بين المسلمين أنفسهم.. فتلك معركة الجمل، لا غنائم فيها، وقد روي عن الإمام عليٍّ عليه السلام أنّه قال يوم الجمل: «لا يقتل أسيرهم، ولا يكشف سترٌ، ولا يؤخذ مالٌ...، وجمع ما كان في العسكر من شيء، ثم بعث به إلى مسجد البصرة أن من عرف شيئاً فليأخذه، إلاّ سلاحاً كان في الخزائن

عليه سمة السلطان، فإنه لما بقي لم يعرف، خذوا ما أجلبوا به عليكم من مال الله عزّوجلّ، لا يحلّ لمسلم من مال المسلم المتوفى شيء، وإنما كان ذلك السلاح في أيديهم من غير تنفيل من السلطان.

ومما جاء في كلام له فيهم: «.. ما كان لهم من مال في أهليهم فهو ميراث على فرائض الله».[1]

كما أنَّ من معاني الغنيمة في اللغة ـ كما يأتينا ـ هو الفوز بالشيء بلا مشقة ولا تعب، وقد حقق الإسلام هذا المعنى حين يحصل ذوو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل على حصصهم من تلك المغانم دون عناء منهم ولا جهد، وقد حازها المقاتلون بلا شك بعد أن أجهدوا أنفسهم وأتعبوها، إضافةً إلى أموال بذلها عدد منهم..

أكتفي بهذا وبأمثلته ولعل هناك غيرها من الحكم والأهداف والأمثلة ما يميز الغنيمة في العصر النبوي في المدينة، والذي لم يدم لأكثر من عشر سنوات عن تلك التي وقعت في الجاهلية... لم أتوفر عليها تمّت دون أن يكون هناك ضغط من قوة ولا إغراء بمال أو رغبة في تمدد وسيطرة وسلطان...

---

١. أنظر تاريخ الطبري ٣ : ٥٧، وأيضاً ٥٩، سنة ٣٦؛ والإمامة والسياسة، لابن قتيبة الدينوري : ٩٧.

وساءت فيه أخلاقنا!!! هذه هي العبارة التي استوقفتني كثيراً، والتي أطلقها صريحةً الصحابي الجليل عبادة بن الصامت، وأنا أقرأ سورة الأنفال وتفسيرها، وقد دعتني هذه العبارة للكتابة عن الغنائم بعد أن دفعتني للاطلاع عليها في تاريخها عند إنسان الجاهلية، وما كان يرتكبه في غزواته من مظالم وتجاوزات، وما تركه واقع السوء ذاك من آثار سلبية على إنسان الجزيرة العربية وإن أسلم، فإن نفسه لم تطهر بعدُ من ترسبات تلك الغزوات وغنائمها، بدليل أني ما رأيت معركة خاضها المسلمون في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وهو بينهم وانتصروا فيها، ناهيك عن العصور التي تلته، إلاّ وظهرت مشكلة بينهم تتعلق بالغنائم والأنفال والفيء ـ على اختلاف الأقوال في المراد من كل منها ـ وتوزيعها، وفي حبّ الاستحواذ عليها دون الآخر، أو الحصول على النصيب الأكبر منها، وكم هو عجيب أنهم يتّحدون على قتال عدوهم ويكونون ضده صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص، إلاّ أنهم سرعان ما يختلفون فيما بينهم حول الغنائم وكيفية توزيعها، هذا وهو صلى الله عليه وآله فيهم، وهو النبيُّ الرسول الصادق الأمين، وهو الأعدل في توزيعها، وهو كما وصفت الآية علاقته بهم:

﴿... عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.[1]

---

١. التوبة : ١٢٨.

ومع هذا اعترض عليه جملة منهم أو راحوا يساءلونه عما يفعله في توزيعها حتى أكثروا من أسئلتهم، ومن مواقف مستفسرة بل معترضة، بل ومسيئة للرسول صلى الله عليه وآله كما تأتينا، ومواقف أخرى أكثر خطورةً أدّت إلى هزيمة عسكرية مؤثرة... فإن ساءت أخلاقهم في نهاية معركة بدر الكبرى، فقد ساءت في غيرها.. كلُّ هذا بسبب ما فعلته الغنائم بهم؛ ونكتفي بغنائم المعارك الثلاث بدر وأحد وحنين أمثلةً لذلك!

ولنبدأ بغنائم معركة بدر الكبرى:

و بدرٌ: واد يقع بين مكة والمدينة على ٢٨ فرسخاً، صار مسرحاً لهذه المعركة في السابع عشر من شهر رمضان سنة ٢ هجرية، بعد تسعة عشر شهراً من الهجرة النبوية المباركة للمدينة، والتي تعدُّ أول معركة حاسمة واجه بها المسلمون بضعف عدّةٍ، فلم يكن معهم من الخيل إلاّ فرسان: فرس للزبير، وفرس للمقداد بن الأسود. وكان معهم سبعون بعيراً، يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير، وقلة عدد، لم يتجاوز ثلاثمائة وبضع عشرة رجلاً.، واجهوا قريشاً بعدتها وعددها، فهم ثلاثة أمثال المسلمين...، راحت سورة الأنفال بجمع من آياتها يصف أسباب هذا الحدث، ومسيرته ونتائجه، وما فيه من حكم وعبر وأحكام، وغدت السماء تواكب المقاتلين تثبيتاً وإمداداً حتى كتبت نصراً للمسلمين متوفراً على غنائم، ما إن وضعت الحرب أوزارها، حتى أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بها فجمعت، ثمَّ وقع الاختلاف بين المقاتلين المسلمين، فكانوا ثلاثاً:

فمن جمعها، قال: هي لنا!

ومن هزم العدو، قال: لولانا ما أصبتموها!

فيما الذين يحرسون رسول الله صلى الله عليه وآله قالوا: ما أنتم بأحق بها منّا!

قال عبادة بن الصامت: فنزعها الله من أيدينا، فجعلها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فقسمها بين المسلمين..

وأنزل الله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلأنفَالِ قُلِ ٱلأنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.[1]

فتضمنت سؤالاً فإجابة ـ إضافةً للإجابة المفصلة الأخرى عن الغنيمة، التي حملتها الآية ٤١ الأنفال، التي سيأتي الكلام عنها ـ لتحسم ما وقع من نزاع بين المقاتلين المسلمين حول ما غنموه من قريش وممن تحالف معها من القبائل..

وأعقبتها: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾.

وأمرتهم بالطاعة: ﴿وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾.

فكان في ذلك تقوى الله، وطاعة رسوله، وصلاح ذات البين، وهو الآتي من قول الصحابي عبادة بن الصامت!

يقول الخبر:.. عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ (بَدْرٍ) قُتِلَ أَخِي عُمَيْرٌ، وَقَتَلْتُ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ فَأَخَذْتُ سَيْفَهُ، وَكَانَ يُسَمَّى ذَا

---

١. الأنفال : ١.

الْكَيْفَةِ، فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: اذْهَبْ فَاطْرَحْهُ فِي الْقَبَضِ، قَالَ: فَرَجَعْتُ وَبِي مَا لا يَعْلَمُهُ إلاَّ اللهُ مِنْ قَتْلِ أخِي وَأَخْذِ سَلَبِي، فَمَا جَاوَزْتُ إلاَّ قَرِيبًا حَتَّى نَزلَتْ سُورَةُ الأَنفَالِ، فقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: اذهب فَخُذْ سَيْفَكَ!

وعنه قال: ٱغتنم أصحاب رسول الله ﷺ غنيمة عظيمة، فإذا فيها سيف، فأخذتهُ فأتيت به النبيّ ﷺ فقلت: نَفِّلني هذا السيف، فأنا من قد علمتَ حاله. قال: «ردّه من حيث أخذته»؛ فانطلقت حتى أردت أن ألقيَه في القَبَض، لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت: أعطنيه. قال: فشدّ لي صوته «ردّه من حيث أخذته»، فانطلقت حتى أردت أن ألقِيَه في القَبض لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت: أعطنيه، قال: فشدّ لي صوته «ردّه من حيث أخذته»؛ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾. بعد نقله لهذه الرواية ولرواية عبادة بن الصامت... وساءت فيه أخلاقنا... يقول القرطبي: والروايات كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية، والله الموفق للهداية!

..عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ فَعَلَ كذا وكذا، فله كَذَا وكذا.

فذهب شباب الرِّجَالِ وَجَلَسَ الشُّيُوخُ تَحْتَ الرَّايَاتِ، فَلَمَّا كَانَتِ الغنيمة، جاء الشباب يَطْلُبُونَ نَفَلَهُمْ، فَقَالَ الشُّيُوخُ: لا تَسْتَأْثِرُوا عَلَيْنَا فَإِنَّا كُنَّا تَحْتَ الرايات ولو انهزمتهم لَكُنَّا لَكُمْ رِدْءًا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفَالِ﴾؛ فَقَسَمَهَا بَيْنَهُمَا بالسَّوِيَّةِ.

.. عَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: لَمَّا هُزِمَ الْعَدُوُّ يَوْمَ (بَدْرٍ) وَاتَّبَعَتْهُمْ طَائِفَةٌ يَقْتُلُونَهُمْ وَأَحْدَقَتْ طَائِفَةٌ برَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وَاسْتَوْلَتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ وَالنَّهْبِ، فَلَمَّا نَفَى اللهُ الْعَدُوَّ، وَرَجَعَ الَّذِينَ طَلَبُوهُمْ، قَالُوا: لَنَا النَّفَلُ؛ نَحْنُ طَلَبْنَا الْعَدُوَّ وَبِنَا نَفَاهُمُ اللهُ وَهَزَمَهُمْ، وَقَالَ الَّذِينَ أَحْدَقُوا برَسُولِ اللهِ ﷺ وَاللهِ مَا أَنْتُمْ بِأَحَقَّ بِهِ مِنَّا؛ نَحْنُ أَحْدَقْنَا برَسُولِ اللهِ ﷺ لا يَنَالُ الْعَدُوُّ مِنْهُ غِرَّةً فَهُوَ لَنَا، وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَوْلَوْا عَلَى الْعَسْكَرِ وَالنَّهْبِ: وَاللهِ مَا أَنْتُمْ بِأَحَقَّ مِنَّا؛ نَحْنُ أَخَذْنَاهُ وَاسْتَوْلَيْنَا عَلَيْهِ فَهُوَ لَنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾، فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بالسَّوِيَّةِ.

وأيضاً عن أبي أمامة الباهلي، قال: سألتُ عبادة بن الصامت عن الأنفال، فقال: «فِينَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ بَدْرٍ نَزَلَتْ حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النَّفَلِ، وَسَاءَتْ فِيهِ أَخْلاقُنَا، فَنَزَعَهُ اللهُ مِنْ أَيْدِينَا، فَجَعَلَهُ إِلَى رسوله، فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بين المسلمين عَنْ بَوَاءٍ ـ يَقُولُ عَلَى السَّوَاءِ ـ فَكَانَ فِي ذَلِكَ تَقْوَى اللهِ، وَطَاعَةُ رَسُولِهِ، وإِصْلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ».[1]

لقد دفع تنازعهم وتشاجرهم الصحابي عبادة بن الصامت أن يعلنها صريحةً!

---

١. أسباب النزول، للواحدي، سورة الأنفال؛ تاريخ الطبري٢: ٣٨، سنة٢؛ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي٤، أول سورة الأنفال.

وساءت فيه أخلاقنا!

يصف حالتهم بعد أن تركت نهاية معركة بدر الكبرى آثاراً سلبية خطيرة على مشركي مكة نتيجة هزيمتهم الكبرى، وقد كبدتهم الكثير من رجالهم، فكانوا بين قتلى وأسرى، وعندها كسرت كبرياءَهم وعنجهيتهم، ولاذ من تبقى منهم بالفرار والذلة تلاحقهم، وكان يوماً ترك آثاره الإيجابية على الساحة المؤمنة، بعد تحقق النصر، ولكن كان يوماً ساءت فيه ـ وللأسف ـ أخلاق المقاتلين المسلمين، حين وقع التنافس والتشاجر بينهم، حتى غدوا في غفلة عن ذلك الانتصار وآثاره واستثماره، ينظرون إلى الغنائم والنَّفَلِ، فشكل أثراً سلبياً راحت مصادر التاريخ والحديث تذكره، ويا ليته توقف عند هذه المعركة دون أن يتكرر في مواقع أخرى، وأيضاً في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو ما يدفع للتساؤل: كيف حال المسلمين بعده صلى الله عليه وآله فيما خاضوه من معارك أو فتوحات؟! إنها الطبيعة البشرية ومشاعرها بل وشيطانها الذي يغويها ويسول لها ويوسوس فيها، لكن السماء لم تتركها دون ضبط لها عبر أحكام سنتها لهذه الغنائم لتضعها في مكانها المناسب، وتلبي حاجتهم الواقعية، وتملأ مشاعرهم البشرية، وتمنع التكالب عليها والتنازع فيها، فجاءت الآيات الكريمة: (الأنفال:١و٤١، الحشر:٦ـ٧، لتشرع لهم منهجاً يقيهم الفتنة وما يفسد الودَّ بينهم، ولتبين لهم من هو أحقُّ بها من غيره و ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ

الأَغْنِياءِ مِنْكُمْ﴾،[١]

وهنا نسوق أمثلة شكلت خطورةً كبرى على الساحة المؤمنة، لولا تدخل السماء السريع في كل وقعة حسماً لها وحدّاً للفوضى التي أربكت الساحة يومذاك، والأعداء يحيطون بها، فمن الخارج مشركو قريش والقبائل الأخرى، ومن الداخل يهود بني قريظة والنضير، إضافةً إلى المنافقين...

سيد قطب:.. المغانم التي يغنمها المسلمون في جهادهم في سبيل الله.. بعد ما ثار بين أهل بدر من الجدال حول تقسيمها. فردهم الله إلى حكمه فيها؛ كما ردهم إلى تقواه وطاعته وطاعة رسوله؛ واستجاش في قلوبهم وجدان الإيمان والتقوى، ثم أخذ يذكرهم بما أرادوا لأنفسهم من العير والغنيمة، وما أراده الله لهم من النصر والعزة. وكيف سارت المعركة، وهم قلة لا عدد لها ولا عدة، وأعداؤهم كثرة في الرجال والعتاد. وكيف ثبتهم بمدد من الملائكة، وبالمطر يستقون منه ويغتسلون ويثبت الأرض تحت أقدامهم فلا تسوخ في الرمال، وبالنعاس يغشاهم فيسكب عليهم السكينة والاطمئنان. وكيف ألقى في قلوب أعدائهم الرعب وأنزل بهم شديد العقاب.[٢]

---

١. الحشر : ٧ .

٢. في ظلال القرآن: بداية سورة الأنفال.

غنائم معركة أحد

أحد جبل في شمال المدينة المنورة، كان سفحه ميدان معركة في الخامس عشر من السنة الثالثة من الهجرة بين المسلمين ومشركي قريش، ولمعرفة خطورة ما جرى في هذه المعركة، تراجع الآيات القرآنية الخاصة بها في سورة آل عمران، فقد ورد فيها (٥٨ آية)، راحت تتحدث عنها وتصفها وصفاً دقيقاً، لا يخلو من كشف لخفايا النفوس، ودخائل القلوب، وخطورة ما تعرض له رسول الله صلى الله عليه وآله.. بجانب ما حوته من تربية للأمة ودروس تتوارثها أجيالها المتعاقبة. وقد ابتدأت بذكر أول مرحلة من مراحل الإعداد للمعركة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾،[1] وانتهت بالتعليق الجامع على نتائج المعركة، والحكم التي أرادها الله منها: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.[2] وخير دليل على خطورة ما وقع والمعركة في خطواتها الأولى، المخالفة التي ارتكبها أكثر الرماة بسبب الغنائم التي تركها المشركون بعد هزيمتهم خاصة إذا ما أضيفت إلى الخطوة التي تلتها؛ حين ذهب جمع من المسلمين بعيداً في صعيد الأرض فراراً من القتال، وقد

---

١. آل عمران : ١٢١.

٢. آل عمران : ١٧٩.

أمعنوا في الهزيمة فلا يعرجون على أحد ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله بنجدة أو مساعدة، حتى وصفتهم الآية: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾، والرسول خلف ظهورهم في مواجهة المشركين، يناديهم: «ارجعوا إليّ عبادَ الله ارجعوا إليَّ أنا رسول الله». حتى أنَّ عثمان بن عفان عاد من فراره بعد ثلاثة أيام، ونسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال له بعد عودته: «لقد ذهبت بها عريضة». أي بالغت في فرارك.[1]

وذهب بسبب مخالفتهم تلك انتصار المسلمين بعد أن انعقدت أسبابه، ولاحت بوادره، و كادت تطيح بالإسلام ورسوله صلى الله عليه وآله والمسلمين، حين غادر أربعون من الرماة الخمسين، الذين وضعهم رسول الله صلى الله عليه وآله على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادي مناة، وهو ما يعرف اليوم بجبل الرماة، الذي يشكل الثغرة الوحيدة، التي قد يستغلها العدو، وأكد عليهم مراراً عدم التخلي عن موقعهم الدفاعي، عبر أوامره الواضحة وهي تحمل مراداً واحداً لا غير؛ ومعناه أن اثبتوا مكانكم انتصرنا أو انهزمنا، وبالتالي لم تترك أي مجال لاجتهادهم، فقد قال صلى الله عليه وآله لعبد الله بن جبير قائد الرماة: «انْضَحْ عَنَّا الْخَيْلَ بالنَّبْلِ لا يَأتُونَ مِنْ خَلْفِنَا، إنْ كَانَتْ لَنَا أوْ عَلَيْنَا فَاثْبُتْ

---

١. الكامل في التاريخ ٤: ٢٨؛ تاريخ الطبري ٢: ٦٩؛ السيرة الحلبية ٢ : ٥٠٤؛ والإرشاد، للشيخ المفيد ١ : ٨٤.

مَكَانَكَ، لاَ نُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِكَ».

ثم قال للرماة:

«إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ، فَلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتّى اُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَوَطِئْنَاهُمْ فَلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتّى اُرْسِلَ إِلَيْكُمْ.

احموا ظهورنا ولاتبرحوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن غَنِمنا فلا تَشركونا.

اثْبُتُوا مَكانَكُمْ ولا تَبْرَحُوا وَإِنْ رأَيْتُمُونا قَدْ هَزَمْناهُمْ، فإِنَّا لَنْ نَزالَ غالبينَ ما ثَبَتُّمْ مَكانَكُمْ...

لا تَبْرَحُوا مَكانَكُم! إِنْ رأَيْتُمُونا ظَهَرْنا عَلَيْهِمْ فَلا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنا فَلا تُعِينُونا.

فخالفوا ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وآله بسبب الغنائم؛ وذلك حين هُزم المشركون، فانكشفت الغنائم أمامهم، ورأوا حتى النساء قد رفعن عن سوقهن، وبدت خلاخلهن، فجعل يقول بعضهم لبعض: الغنيمة الغنيمة! لِمَ تقيمون هاهنا وقد هَزَم الله العدو، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم؟

والله لنأتينَّ الناس فنصيبن من الغنائم!

فقال عبد الله: «أنسيتم قول رسول الله صلى الله عليه وآله.. مهلاً، أما علمتم ما عهد إليكم رسول الله صلى الله عليه وآله؟

فأكثر من تذكيرهم بأوامر رسول الله صلى الله عليه وآله ومناشدتهم أن لا يتركوا مواقعهم، فعموا وصموا، وأبوا إلا أن ينطلقوا إزاءها!..[١]

لقد عصوا حين تركوا بعضَهم القليل الذي لا يتجاوز العشرة، وتوجهوا نحو الغنائم مسرعين غير مبالين، لا فقط ينتهبونها من عسكر المشركين، بل يتسابقون لجمعها والاستحواذ عليها، فتمكن من كان من جيش أبي سفيان بقيادة خالد بن الوليد من الاستدارة نحو هذه الثغرة واقتحامها بعد أن كانت عصيّةً عليهم وحصينةً، فلما ضعفت، قتل عبد الله بن جبير ومن فيها، وأدت إلى تغيير ميزان المعركة لصالح قريش، حتى تمكن جمع من التوجه إلى رسول الله والإحاطة به ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح ورمياً بالنبل ورضخاً بالحجارة، وتمّت إصابته من قبل عبد الله بن شهاب بشجٍّ جبهته المباركة، فيما استطاع ابن قمئة الحارثي أن يُصيب أنفه، وهكذا حتى أشيع أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قتل، وراحت صرخة الشيطان تعلو سماء المعركة ومفادها "ألا إنّ محمداً قد قتل". وانهزم المسلمون وفرّوا عن رسول الله... وأصيب من المسلمين سبعون قتيلاً...

ومن أمعن في تفاصيل معركة أحد، يجد لا فقط الرماة قد دفعهم الطمع بالغنائم، بل هناك جمع من المقاتلين المسلمين قد سبقوا الرماة في الاستحواذ على الغنائم وتركوا عدوهم يفرُّ، قبل أن يعيد الكرّة عليهم،

---

١. جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت ٣١٠هـ) وغيره، بتصرف.

وقع هذا حين «اقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل الإمامُ عليٌّ عليه السلام أصحاب اللواء عن آخرهم وكانوا تسعة، وانهزم القوم وطارت مخزوم (هربت وتفرقت)؛ فضَحها عليٌّ عليه السلام يومئذ، ودخل المسلمون عسكر المشركين، فأقبلوا يغنمون وينهبون مكبين على ذلك، ورسول الله صلى الله عليه وآله يدعوهم إلى اتباع القوم، ويقول: إنَّ الغنائم لكم»!

هذا هو المشهد الذي أثار طمع الرماة؛ فسال له لعابهم! وتنادوا بينهم: لِمَ تقيمون هاهنا وقد هزم الله العدو، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم؟!

إذن فالغنائم في معركة أحد كانت هي السبب في تحويل النصر الذي تحقق للمسلمين في بداية المعركة إلى هزيمة وانكسار لهم حين تعلقت قلوب فريق منهم من ساحة المعركة ومن أعلى الجبل بغنائم تركها المشركون في ساحة المعركة بعد هزيمتهم أول الأمر، وقبل تحقيق النصر التام على المشركين ترك الرماة أماكنهم التي عيّنها رسول الله صلى الله عليه وآله لهم، فدارت عليهم الدائرة، نتيجة تلك "الخطيئة التي وقعت منهم عن ضعف وعجز أو عن طيش ودفعة، وراحت آيات التنزيل تستحضر صورة الهزيمة حيّة متحركة: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾. كي يعمق وقع المشهد في حسهم، ويثير الخجل والحياء من الفعل، ومقدماته التي نشأ عنها، من الضعف والتنازع والعصيان.. والعبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية في ألفاظ قلائل.. فهم

مصعدون في الجبل هرباً، في اضطراب ورعب ودهش، وقد تركوا رسولهم الحبيب يصيبه ما أصابه، وهو ثابت دونهم، وهم عنه فارون، لا يلتفت أحد منهم إلى أحد! ولا يجيب أحد منهم داعي أحد! والرسول صلى الله عليه وآله يدعوهم، ليطمئنهم على حياته بعد ما صاح صائح: إنّ محمداً قد قتل، فزلزل ذلك قلوبهم وأقدامهم.. إنه مشهد كامل في ألفاظ قلائل".[١]

نعم زلزلوا زلزالاً شديداً، بعد أن اضطربت ساحتهم.. و كاد النصر النهائي يتحقق للمشركين، وتحل بالمسلمين هزيمة كبرى قد لا تنتهي آثارها باندحار المسلمين بل بنهاية هذه الدعوة المباركة.. لولا إرادة الله وحكمة رسوله وحسن قيادته الرشيدة، فراح صلى الله عليه وآله ـ مع ما أصابه من جراح وكسر رباعيته ـ .. بسرعة يعيد تنظيم جنده، وانقض على المشركين الذين ولوا الأدبار خائفين مذعورين...

فخطورة إيثار الدنيا على الآخرة تجسده هذه المعركة بوضوح، قال ابن مسعود: ما كنت أرى أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد: ﴿مِنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾.[٢]

وكذا ابن عباس قال: لما هزم الله المشركين يوم أحد، قال الرماة: أدركوا الناس ونبي الله، لا يسبقوكم إلى الغنائم، فتكون لهم دونكم.. وقال

---

١. سيد قطب، في ظلال القرآن : الآية.
٢. آل عمران : ١٥٢.

بعضهم: لا نبرح حتى يأذن لنا النبيُّ صلى الله عليه وآله فنزلت: ﴿مِنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ...﴾.

غنائم معركة حنين

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، أي نصركم يوم حنين أيضاً وهو واد إلى جنب ذي المجاز، قريب من الطائف، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات، وقيل: إن بينه وبين مكة ست ليال وقيل: ثلاث ليال..، وقعت فيه معركة سميت باسمه في العاشر من شوال سنة ٨ هجرية بين المسلمين وقبيلتي هوازن وثقيف ومن تحالف معهم، وقصة الاستعداد بين الطرفين لهذه المعركة طويلة ومفصلة، أكتفي منها بفقرات مما ذكره أهل التفسير وأصحاب السير أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما فتح مكة، دخلها في عشرة آلاف رجل، و بعد أن أقام فيها خمسة عشر يوماً، خرج منها في اثني عشر ألفاً، أي بزيادة ألفين من مسلمة الفتح، متوجهاً إلى حنين؛ لقتال هوازن وثقيف في آخر شهر رمضان، أو في شوال من سنة ثمان من الهجرة، وعقد رسول الله صلى الله عليه وآله لواءه الأكبر ودفعه إلى علي بن أبي طالب عليه السلام وكل من دخل مكة براية أمره أن يحملها، وبعث إلى صفوان بن أمية فاستعار منه مائة درع...

فيما ذكروا أنَّ رؤساء هوازن اجتمعوا إلى سيدها مالك بن عوف النصري وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة، ومشت معهم ثقيف،.. وبَغوا وأظهروا أن قالوا: والله ما لاقى محمدٌ قوماً يُحسنون القتال، فأجمعوا أمركم فسيروا

إليه قبل أن يسير إليكم... وحشدوا ثلاثين ألف مقاتل، وساقوا معهم أموالهم ونساءهم وذراريهم ونزلوا بأوطاس.

راعي ضأن وربِّ الكعبة!

ولما سمع دريد بن الصمة رئيس جُشَمْ بذلك، وكان شيخاً كبيراً قد ذهب بصره من الكبر، راح يقدم لمالك النصيحة تلو الأخرى حين سألهم؛... ما لي أسمع رغاء البعير ونهيق الحمير وخوار البقر وثغاء الشاة وبكاء الصبيان؟!

فقالوا: إنّ مالك بن عوف ساق مع الناس أبناءهم وأموالهم ونساءهم؛ ليقاتل كل منهم عن أهله وماله.

فقال: أين مالك؟

قالوا: هذا مالك.

فقال: يا مالك إنك تقاتل رجلاً كريماً!... يا مالك مالي أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير، وخوار البقر، وبكاء الصغير، وثُغاءَ الشاء؟

قال مالك: سقتُ مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم، قال دريد: ولِمَ؟! قال مالك: أردتُ أن أجعل خلف كلِّ رجل أهله وماله وولده ونساءه حتى يُقاتل عنهم!

فقال دريد: راعي ضأن، ماله وللحرب؟!

وفي خبر قال: ائتوني بمالك فلما جاءه قال: يا مالك إنك أصبحت رئيس قومك وهذا يوم له ما بعده، ردّ قومك إلى عليا بلادهم، وألق

الرجال على متون الخيل، فإنه لا ينفعك إلاّ رجل بسيفه وفرسه، فإن كانت لك، لحق بك من ورائك، وإن كانت عليك، لا تكون فضحت في أهلك وعيالك!

فقال له مالك: إنك قد كبرت وذهب علمك وعقلك!

فقال: راعي ضأن وربِّ الكعبة!

فكان غرض مالك مما حمله معه أن يستبسل قومه وأتباعه في القتال دون ما جلبوه معهم من نساء وبنين وأموال كثيرة ومواش... ولا يدري أنها جميعاً ستكون مغنماً عظيماً للمسلمين وفتنةً لهم!...

وبدأ القتال:

فقد راح مالك بن عوف يأمر قومه ومن معهم ويستحثهم بقوة، قائلاً: ليصير كل رجل منكم أهله وماله خلف ظهره، واكسروا جفون سيوفكم، واكمنوا في شعاب هذا الوادي وفي الشجر، فإذا كان في غبش الصبح، فاحملوا حملة رجل واحد فهدّوا القوم، فإن محمداً لم يلق أحداً يحسن الحرب...

ولما صلّى رسول الله ﷺ بأصحابه الغداة، انحدر في وادي حنين، فخرجت عليهم كتائب هوازن من كل ناحية،... وخلى الله تعالى بين المسلمين و عدوهم، فحلَّت الهزيمة بهم، وولوا مدبرين إلا القليل الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ والسبب فيما وقع:

حين أعجبتهم كثرتهم في ذلك اليوم

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

وأيضاً حين أقبلوا على الغنائم، يقول صاحب تفسير المنار: وأما السبب الثاني للهزيمة ومثل ما سبق في وقعة أحد من ظهور المسلمين على المشركين وإقبالهم على الغنائم واشتغالهم بها عن القتال وعند ذلك استقبلتهم هوازن وبنو نضر بالسهام، وكانوا رماة لا يكاد يخطيء لهم سهم... ثمَّ يذكر حديث البراء بن عازب حين سأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم حنين؟

فقال: لكن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يفر، كانت هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله على بغلته البيضاء. وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها،...

وأما السبب الثاني للهزيمة ومثل ما سبق في وقعة أحد من ظهور المسلمين على المشركين وإقبالهم على الغنائم واشتغالهم بها عن القتال وعند ذلك استقبلتهم هوازن وبنو نضر بالسهام وكانوا رماة لا يكاد يخطيء لهم سهم.

روى الشيخان وغيرهما من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم

حنين؟ فقال: لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر، كانت هوازن رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء. وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، فنزل ودعا واستنصر وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطّلب

«اللهم أنزل نصرك».

قال البراء: كنا والله إذا احمّر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي صلى الله عليه وآله.

واختلف في عدد من ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله، قال الحافظ في شرح حديث البراء من فتح الباري...: فلم يبق معه إلا أربعة نفر ثلاثة من بني هاشم ورجل من غيرهم: علي والعباس بين يديه، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بالعنان، وابن مسعود من الجانب الأيسر، (قال) وليس يقبل نحوه أحد إلا قتل. وروى الترمذي.[1]

وفي مجمع البيان...: وبقي علي عليه السلام ومعه الراية يقاتلهم في نفر قليل، ومرَّ المنهزمون برسول الله صلى الله عليه وآله لا يلوون على شيء، وكان العباس بن عبد المطلب آخذاً بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله والفضل عن يمينه، وأبوسفيان بن الحارث بن عبد المطلب عن يساره، ونوفل بن الحارث

---

١. أنظر تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (ت ١٣٥٤هـ).

وربيعة بن الحارث في تسعة من بني هاشم، وعاشرهم أيمن ابن أم أيمن وقتل يومئذٍ، وفي ذلك يقول العباس:

نَصَرْنا رَسُولَ اللهِ في الْحَرْبِ تِسْعَةً وَقَدْ فَرَّ مَنْ قَدْ فَرَّ عَنْهُ فَاقْشَعُوا..

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله هزيمة القوم عنه، قال للعباس: وكان جهورياً صيتاً: «اصعد هذا الظرب (التل الصغير) فنادى يا معشر المهاجرين والأنصار! يا أصحاب سورة البقرة! يا أهل بيعة الشجرة! إلى أين تفرون هذا رسول الله»! فلما سمع المسلمون صوت العباس، تراجعوا وقالوا: لبيك لبيك، وتبادر الأنصار خاصة، وقاتلوا المشركين حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الآن حمي الوطيس،**

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطّلب».

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.[1]

لقد أنزلت السماء عليهم سكينتها وتأييدها فنصرها... وانهزمت هوازن ومن معها هزيمة قبيحة، مرُّوا في كل وجه، ولم يزل المسلمون في آثارهم، حتى اكتمل ذلك النصر...

وأغنم الله المسلمين الكمّ الأكثر والأعظم من الغنائم:

فالسبايا كثيرة، بلغت عدّتهم ألف فارس، و ستة آلاف من الذراري

---

١. التوبة : ٢٦ .

والنساء، وأما الفضة فكانت أربعة آلاف أوقية، والغنم لا يُدرى عـددها؛ أو كانت أربعين ألفاً تزيد أو تنقص قليلاً، وهناك أربعـة وعشـرون ألـف بعير، فيما ذكروا أن هناك اثنتى عشر ألف ناقة، و من الإبل ما لا يـدرى عدته.. سوى الأسلاب!

وسـبب هـذه الكثـرة في الغنـائم الـتي سـقطت بأيـدي المسلمين، ما ذكرناه من أنَّ مالك بن عوف النصـري الـذي جمـع القبائـل للقتال ساق مع المقاتلة نساءهم وأبناءهم ومواشيهم وأمـوالهم لأجـل أن يثبتوا ولا يفروا. وبعد أن يذكر صاحب تفسير المنار هـذا السـبب أيضـاً، يقول: فكان ذلك تسـخيراً مـن الله تعـالى ليكونـوا غنيمـة للمسـلمين... ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح، ثمَّ راح يذكر عن ابـن القـيم مـا في هذه الغزوة من الحكم والعبر، منها: إن الله سبحانه لما منع الجـيش غنـائم مكة، فلم يغنموا منها ذهباً ولا فضة ولا متاعاً ولا سـبياً ولا أرضـاً كمـا روى أبو داود عن وهب بن منبه قال: سألت جابراً هل غنموا يوم الفـتح شيئاً؟ قال: لا. وكانوا قد فتحوها بإيجاف الخيـل والركـاب وهـم عشـرة آلاف، وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أسباب القـوة، فحـرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم، وقذف في قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم وشياههم وسبيهم معهم نزلاً وضيافةً وكرامةً لحزبه وجنده، وتمـم تقـديره سبحانه بأن أطمعهم في الظفر، وألاح لهم مبادئ النصر، ليقضـي الله أمـراً كان مفعولاً،.. استفرغت قوى هوازن وثقيف، واستنفذت سهامهم، وأذلت

جمعهم، حتى لم يجدوا بداً من الدخول في دين الله...

أختك شيماء!

وفي خبر أنَّ أختهﷺ بالرضاعة بنت حليمة السعدية، كانت فيمن سُبي، فلمّا قامت على رأسه قالت: يا محمّد أُختك شيماء بنت حليمة، فنزع رسول اللهﷺ برده فبسطه لها فأجلسها عليه، ثمّ أكبّ عليها يسألها، وهي التي كانت تحضنه إذ كانت أُمّها ترضعه..! وقيل كان فيهم حليمة مرضعته أيضاً، فبنو سعد من هوازن...

وأمر رسول الله بالذراري والأموال أن تحدر إلى الجعرانة، فحُبست بها، ومضىﷺ في أثر القوم في طلب مالك بن عوف، حتى وافى الطائف فحاصرها بقية الشهر، فلما دخل ذو القعدة، انصرف منها بعد أربعين يوماً كاملة نحو وادي الجعرانة؛ لتقسيم غنائم حنين.. وقال أنس بن مالك: وكان رسول اللهﷺ أمر منادياً فنادى يوم أوطاس: «ألا لا توطأ الحبالى حتى يضعن، ولا غير الحبالى حتى يستبرأن بحيضة»!

ويبدو أنهﷺ أخّر توزيعها انتظاراً لمجيء أهلها، فلعلهم يأتونه مسلمين، أو يأتلفهم، أو لأنه أعطى فرصة حتى لا تدخل نساء هوازن الاسترقاق، فلما رجع رسول اللهﷺ إلى الجعرانة، أقام يتربص أن يقدم عليه وفدهم.. وفعلاً أقبلت وفود هوازن وقدمت على رسول اللهﷺ بالجعرانة مسلمين، فقام خطيبهم زهير بن صرد وقال: يا رسول الله! إن ما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كُنَّ

يكفلنك (فحليمة السعدية من هوازن) فلو أنا مَلَحْنَا (الممالحة: المواكلة والرضاع) ابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر، ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك، رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت خير الكفولين، ثم أنشد أبياتاً!

امنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه ونذخر
امنن على بيضة قد عاقها قدر ... ممزق شملها في دهرها غير
أبقت لنا الدهر هتافاً على حزن ... على قلوبهم الغماء والغمر
إن لم تداركها نعماء تنشرها ... يا أرجح الناس حلماً حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك يملؤه من محضها درر
إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتي وما تذر
لا تجعلنا كمن شالت نعامته ... واستبق منا فإنا معشر زهر
إنا لنشكر للنعمى وإن كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه ... من أمهاتك إن العفو مشتهر
إنا نؤمل عفواً منك تلبسه ... هذي البرية إذ تعفو وتنتصر
فاغفر عفا الله عما أنت راهبه ... يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر

فقال صلى الله عليه وآله: أيّ الأمرين أحبّ إليكم السبي أو الأموال!

قالوا: يا رسول الله، خيرتنا بين الحسب وبين الأموال، والحسب أحبّ إلينا، ولا نتكلم في شاة ولا بعير.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أما الذي لبني هاشم فهو لكم، وسوف أكلم لكم المسلمين، وأشفع لكم، فكلّموهم وأظهروا إسلامكم!

فلما صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله الهاجرة، قاموا فتكلموا، فقال النبي صلى الله عليه وآله: قد رددت الذي لبني هاشم والذي بيدي عليهم، فمن أحبّ منكم أن يعطي غير مكره فليفعل، ومن كره أن يعطي فليأخذ الفداء، وعليَّ فداؤهم!

فأعطى الناس ما كان بأيديهم منهم إلا قليلاً من الناس سألوا الفداء...

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى مالك بن عوف، وقال: إن جئتني مسلماً، رددت إليك أهلك ومالك، ولك عندي مائة ناقة، فخرج إليه من الطائف، فردَّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، واستعمله على من أسلم من قومه. فانطلقت قريحته لمدح النبي صلى الله عليه وآله فقال:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ومتى تشاء يخبر عما في غد
وإذا الكتيبة عردت أنيابها بالسمهري وضرب كل مهند
فكأنّه ليث على أشباله وسط الهباءة خادر في مرصد.

ونعود إلى المنار عن ابن القيم: فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه وبردت الغنائم لأهلها، وجرت فيها سهام الله ورسوله، قيل: لا حاجة لنا في دمائكم ولا في نسائكم وذراريكم، فأوحى الله سبحانه

إلى قلوبهم التوبة والإنابة، فجاءوا مسلمين، فقيل: إنّ من شكر إسلامكم وإتيانكم أن نرد عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم، و...:﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.[1]

و فيما ذكرناه أنَّ الغنائم شكلت مورداً مالياً كبيراً للمسلمين ولدولتهم في المدينة ولآخرين غيرهم تأليفاً لهم..، وفعلاً كان كذلك، فهذا الصحابي أبو قتادة قد حصل على غنيمة (سلاح، درع) فقال له حاطب بن أبي بلتعة: يا أبا قتادة، أتبيع السلاح؟ يقول أبو قتادة: فبعته منه بسبع أواقٍ، فأتيتُ المدينة، فاشتريت به مَخرَقاً (الحائط من النخل) في بني سلمة يقال له: الرُّدنيّ، فإنه لأول مال لي نلتُه أو تأثَّلتُه في الإسلام، فلم نزل نعيش منه إلى يومنا هذا. ولا أدري ما قيمة هذا الدرع ذي البركة؟! ومتى كان (إلى يومنا هذا) قالها وهو في عهد رسول الله ﷺ أو في عهود الخلفاء الأربع أو في آخرحياته في الكوفة حين توفي سنة أربعين وهو ابن سبعين سنة في خلافة على بن أبى طالب عليه السلام وهو الذي صلّى عليه، وقيل توفي في المدينة سنة أربع وخمسين؟! فإن صحَّ هذا الخبر، فإنه كان يعيش من حائط اشتراه بمبلغ سلاح من غنيمة حنين، فكيف بغيره

---

١. الأنفال:٧٠؛ تفسير مجمع البيان؛ تفسير المنار؛ التوبة:٢٥ــ٢٧؛ تفصيل معركة حنين، البداية والنهاية،٤ قدوم مالك بن عوف؛ الإصابة رقم٧٦٩٠؛ أسد الغابة، رقم ٤٦٣٤؛ عردت: اشتدت،ضربت، القاموس١: ٣١٣. الهباءة: غبار الحرب، مختار الصحاح:٦٨٩؛ الخادر: المقيم في عرينه، والخدر ستر يمد للجارية من ناحية البيت.

ممن كانت حصته من الغنائم أضعافاً مضاعفةً لما ناله هذا الصحابي، حصلت هذه الأضعاف حين رأى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يجزل عطاءه من الغنائم لحديثي العهد بالإسلام للطلقاء والأعراب تأليفًا لقلوبهم ودفعاً لشرورهم ولمصالح أخرى، وقد عبر عن هذا صفوان بن أمية بقوله: "لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطينيحتى إنه لأحب الناس إلَّي.

وهذا أبوسفيان بن حرب، الذي ما إن رأى الهزيمة حلت بالمسلمين حتى قالها شامتاً: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر! فقال رجل من أسلم يقال له أبو مقيت: أما والله، لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله ينهى عن قتلك لقتلتك.

فكان أبوسفيان أول الشامتين حين حلّت الهزيمة بالمسلمين، وفرَّ الناس، ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله من جفاة أهل مكة تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبوسفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر.. وإن الأزلام لمعه في كنانته، كنانته هذه ملئت، حينما خرج رجال من مكة، ركباناً ومشاةً ينظرون لمن تكون الدائرة، فيصيبون من الغنائم، ولا أن تكون الصدمة لمحمد صلى الله عليه وآله وأصحابه، وكان أبوسفيان منهم، حيث خرج في أثر العسكر، كلما مرَّ بترس ساقط أو رمح أو متاع

من متاع النبيﷺ حمله، والأزلام في كنانته، حتى أوقر جمله...[١]

أعطاه رسول اللهﷺ مع زعماء قريش وغطفان وتميم من غنائم حنين عطاءً عظيماً، كان ذلك حين جاء رسول اللهﷺ وقد جمعت الغنائم بين يديهﷺ، ومنها أربعة آلاف أوقية من الفضة، فقال أبوسفيان: يا رسول الله، أصبحت أكثر قريش مالاً، فتبسم رسول اللهﷺ وقال: أعطني من هذا المال يا رسول الله، قال: يا بلال، زن لأبي سفيان أربعين أوقية، وأعطوه مئة من الإبل. قال أبو سفيان: ابني يزيد أعطه. قال رسول اللهﷺ: زنوا ليزيد أربعين أوقية، وأعطوه مئة من الإبل. قال أبوسفيان: ابني معاوية يا رسول الله، قال: زن له يا بلال أربعين أوقية، وأعطوه مئة من الإبل. قال أبوسفيان: إنك لكريم، فداك أبي وأمي، والله لقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيراً!!

إنه المال، كيف يفعل فعلته، فأبو سفيان زعيم مكة ستَّ سنوات من يوم بدر حتى فتحها، وهو من أصحاب الأموال، كيف ذلّته تلك الغنائم

---

١. كتاب المغازي للواقدي٣: ٨٩٤-٨٩٥،٩١٠ ذكر أسماء من ينظرون لمن تكون الدائرة؛ سيرة ابن هشام، شماتة أبي سفيان وغيره بالمسلمين في معركة حنين، كتاب البداية والنهاية، حنين..؛ تفسير المنار، سورة التوبة:٢٥-٢٧ تحت عنوان ظهور شماتة المنافقين بالهزيمة..

الهائلة حين شخص بناظريه إليها، فبهرته وكشفت عن نفسيته الوضيعة، التي دفعته أن يقولها في لهفة):)يا رسول الله، أصبحت أكثر قريش مالاً! عبارة لا تخلو من تلميح لرسول اللهﷺ أن يعطيه منها، ولم يتحمل أن يصبر حتى راح في تصاغر يستجدي منهﷺ صراحةً، (أعطني من هذا المال يا رسول الله!) ولم يكتفِ بما حصل عليه، بل راح يطلب لابنيه: ابني يزيد أعطه! ابني معاوية أعطه!

وهذا حكيم بن حزام، وكان من مسلمة الفتح، وممن خرجوا ينظرون لمن تكون الدائرة، فلعلهم يصيبون من غنائمها، نتركه يحدثنا عما دار من حوار بينه وبين رسول اللهﷺ، سألت رسول اللهﷺ بحنين مائةً من الإبل، فأعطانيها! ثم سألته مائةً، فأعطانيها! ثم سألته مائةً، فأعطانيها!

ثم قال رسول اللهﷺ ـ لا أدري لعلّه بعد أن رآه يريد مزيداً من الغنيمة: ـ يَا حَكِيمُ، إنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أخَذَهُ بسَخَاوَةِ نَفْسٍ ـ يبدو معناها بغير شرط ولا إلحاح ـ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أخَذَهُ بإشْرَافِ نَفْسٍ، لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وكَانَ كَالَّذِي يأكُلُ وَلا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وابدأ بمن تعول!

فقال حكيم بعد هذا الدرس ـ ولا تخلو مسألة الغنائم من دروس وعبر ـ الذي تلقاه من رسول اللهﷺ: والذي بعثك بالحق، لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً! رأي لا آخذ من أحد، وقيل: إنه أخذ المائة الأولى ثم ترك!

وهكذا راحت عطايا رسول اللهﷺ تصل آخرين فأعطى مئة بعير

لكلّ واحد من هؤلاء:

النضير بن الحارث بن كلدة، وأسيد بن حارثة، والحارث بن هشام، وقيس بن عدي، وسُهيل بن عمرو، وحُوَيطب بن عبد العُزَّى، ومالك بن عوف، والأقرع بن حابس التميمي، وعُيينة بن بدر الفزاري، فهؤلاء أصحاب المِئين.

وأعطى رجالاً من قريش دون المائة منهم مخرمة بن نوفل الزهريّ، وعمير بن وَهْب الجُمَحِيّ، وهشام بن عمرو العامريّ. قال ابن إسحاق: فهؤلاء لا أعرف ما أعطاهم.

وأعطى خمسين بعيراً لكلّ من:

العلاء بن جارية، ومخرمة بن نوفل، وسعيد بن يَرْبُوع، وعثمان بن وهب، وهشام بن عمر.

وأعطى عباس بن مِرداس السُّلَمِيّ أبَاعِرَ قليلة فسخِطها. أو أربعاً من الإبل فعاتب النبيّ ﷺ في شعرٍ قاله:

كانت نِهاباً تَلافَيْتُهَا بكَرِّي على المُهْرِ في الأجْرَع
وحشَّى الجنود لكي يُدلجوا إذا هجع القومُ لم أهجعِ
وإيقاظِيَ القومَ أن يرقدوا إذا هَجَع الناس لم أهجع
فأصبَح نَهْبِي ونَهْب العُبَيْـ ـدِ بين عُيَيْنة والأَقْرَع
إلاّ أفائلَ أُعطِيتُهَا عديدَ قوائِمه الأربع
وقد كنتُ في الحرب ذاتُدْرَإٍ فلم أعْطَ شيئاً ولم أمْنع

وماكـــان حِصـــنٌ ولا حـــابسٌ يفوقـــان مِـــرْداسَ في المَجْمـــع
ومـا كنـتُ دون ٱمـرىء منـهما ومـــن تَضـــع اليـــومَ لا يُرْفَـــع

... فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**اذهبوا فاقطعوا لسانه عني**»، فأعطَوْه حتى رَضِيَ؛ أو فاعطوه مائةً من الإبل، فكان ذلك قَطْع لسانه!

أما صفوان بن أمية، فقد ذكروا أيضاً أن عطاءه كـان الأكثـر حـتى أذهل الجميع، فإذا كان جميع ما أعطاه صلى الله عليه وآله لمن ذكرنا في كفَّة، فعطـاؤه صلى الله عليه وآله لصفوان في كفَّة وحده، فصفوان هذا بقي علـى شـركه وإن أعلنـت مكـة إسلامها، وعنده من السلاح الوفير يتاجر بـه؛ وقـد طلـب منـه رسـول الله صلى الله عليه وآله دروعاً، فسأله مستفسراً: أغَصْبٌ يـا محمـد؟ فقـال صلى الله عليه وآله: «لا بَـلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ»...!

وكان أيضاً من أولئك الذين ينظرون لمن تكـون الـدائرة في حـنين ابتغاءً للغنائم، بل و من الشامتين، فقد خرج من مكة ولم يسلم، وهـو في المدة التي جعل له رسول الله صلى الله عليه وآله حين وهب لـه الأمـان يـوم فـتح مكـة وأمهله أربعة أشهر؛ لينظر في أمره بطلبه وكان غائباً، خرج ومعـه حكـيم بن حزام، وحُويطب بن عبد العُزى، وسهيل بـن عمـرو، وأبوسـفيان بـن حرب، والحارث بن هشام، وعبدالله بن أبي ربيعة، ينظـرون لمـن تكـون الدائرة، واضطربوا خلف الناس، والناس يقتتلون، فمـرَّ بـه رجـل فقـال: أبشر أبا وهب! هُزم محمد وأصحابه! فقال له صفوان: إنَّ ربًّا مـن قـريش أحبّ إليَّ من ربٍّ من هوازن إن كنتُ مربوباً!...

وفي خبر صرخ جبلة بن الحنبل أو كلدة بن الحنبل من المشركين، وهو أخٌ لصفوان من أمّه: ألا بطل السحر اليوم، فقال صفوان: اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يَرُبَّني (ربّاً لي، أي مالكاً لي) رجل من قريش أحبّ إلى من أن يَرُبَّني رجل من هوازن!

أنظر إلى ما نقله الخبر عما حصل عليه صفوان هذا من عطاء غنيمة حنين: وأعطى في بني جُمح صفوان بن أمية مائة بعيرٍ، ويقال: إنه طاف مع النبيّ صلى الله عليه وآله والنبيّ صلى الله عليه وآله يتصفح الغنائم إذ مرّ بشعبٍ مما أفاء الله عليه، فيه غنم وإبل ورعاؤها مملوء. فأعجب صفوان وجعل ينظر إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أعجبك يا أبا وهب هذا الشعب؟ قال: نعم. قال: هو لك وما فيه». فقال صفوان: أشهد ما طابت بهذا نفس أحدٍ قط إلا نبيّ وأشهد أنك رسول الله! أو ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبيّ! أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله!

قالها بعد أن أذهلته المفاجأة، وانجلت حقيقته، حين راح يكشف صراحةً ما تحمله نفسه إزاء رسول الله صلى الله عليه وآله كما ذكرنا: والله لقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وآله وأعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني، حتى صار أحبَّ الناس إليّ.[1]

---

١. المغازي، للواقدي٣: ٩٦٤-٩٦٥؛ السيرة النبوية٤ : ظ١٣٠- ١٤٣؛ تفسير مجمع البيان، للشيخ الطبرسي؛ تفسير الجامع لأحكام، القرآن للقرطبي الآية: ٦٠ التوبة.

وحقًّا ما قاله محمد رشيد رضا في تفسير المنار: من الكفار من يخشى شرّه فيرجى بإعطائه كفّ شرّه ورّ غيره معه، ثم يذكر قول ابن عباس: إنّ قوماًكانوا يأتون النبيّﷺ فإن أعطاهم مدحوا الإسلام وقالوا: هذا دين حسن، وإن منعهم ذموا وعابوا. وكان من هؤلاء أبو سفيان بن حرب، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس.[١]

وما قاله الغزالي:... والعجيب أن هؤلاء الذين فرَّوا عند الفزع، هم الذين كثروا عند الطمع. وشاء النبيﷺ أن يلطف معهم، وينسى ماضيهم تكرماً وتأليفاً..

وماذا يصنع؟ إنّ في الدنيا أقواماً كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم، فكما تهدَى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليها فمها حتى تدخل حظيرتها آمنة! فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهشّ له.[٢]

وما إن نظر الناس لهذا العطاء ولهؤلاء الذين آثرهم رسول اللهﷺ به، فيما أوكل كثيرين إلى إسلامهم، حتى تجرأ أحدهم رافعاً صوته قائلاً: والله إنّ هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد فيها وجه الله!

---

١. تفسير المنار، التوبة :٦٠.

٢. أنظر كتاب فقه السيرة، للإمام محمد الغزالي، معركة حنين؛ السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد محمد الصلابي، عن كتاب المجتمع المدني في عهد النبوة:٢١٩.

هذا ما حدّث به عبدُ الله بن مسعود:... فلما كان يوم حنين آثر رسول الله صلى الله عليه وآله أناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ في القسمة، فقال رجل: والله إنّ هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد فيها وجه الله، قال: فقلت: والله لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: فأتيته فأخبرته بما قال، قال: فتغير وجهه حتى كان كالصرف، ثم قال: «فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله؟!» قال: ثم قال: «يرحم الله موسى؛ قد أوذي بأكثر من هذا فصبر» قال: قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً.[1]

وعن أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، قال: مُرْ لي من مال الله الذي عندك! فالتفت إليه، فضحك: ثم أمر له بعطاء.[2]

وعَنْ أبي مُوسَى، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله، وَهُوَ نَازِلٌ بِالْجِعْرَانَةِ، بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَمَعَهُ بلالٌ، فَأَتَى رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله رَجُلٌ أعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: ألا تُنْجزُ لِي يَا مُحَمَّدُ مَا وَعَدْتَنِي؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: «أَبْشِرْ، فَقَالَ

---

١. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، حديث ١٠٦٢.

٢. أنظر كتاب فقه السيرة للإمام محمد الغزالي، معركة حنين. وفي الهامش مصادره.

الأَعْرَابِيُّ: أَكْثَرْتَ عَلَيَّ مِنْ أَبْشِرْ! أَلا تُنْجزُ لِي يَا مُحَمَّدُ مَا وَعَدْتَنِي؟ فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله عَلَى أَبِي مُوسَى وَبَلالٍ كَهَيْئَةِ الْغَضْبَانِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا قَدْ رَدَّ الْبُشْرَى، فَاقْبَلاَ أَنْتُمَا. فَقَالا: قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ...».[1]

و وجد الأنصار عليه صلى الله عليه وآله!

وأيضاً نجد الذين وصفهم الله تعالى آووا... وبسب الغنائم وجدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله ووجد لغةً من وَجَدَ فلان يجدُ وَجداً: حَزن، ووجَد عليه مَوجدَةً: غَضِبَ، فيما وجَد به وجداً: أحبه..

فالأول يعني الحزن، والثاني: الغضب، فيما الثالث يعني الحب، والخبر هكذا ورد: (إنّ هذا الحيّ من الأنصار، قد وجدوا عليك..)، بمعنى غضبوا عليك! السؤال: أو يصحُّ الغضب على رسول الله صلى الله عليه وآله؟!

حدث هذا حين رأى الأنصار أيدي أعداء الدين وكذا الفارين تعود ملأى من غنائم حنين حتى وجدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وراح قائلهم يقول: لقى ـــ والله ـــ رسول الله قومه! نجد هذا فيما قاله أبو سعيد الخدري: لما أصاب رسول الله الغنائم يوم حنين، وقسم للمتألفين من قريش ومن سائر العرب ما قسم، ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير، فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله، إنّ هذا الحيّ من الأنصار، قد وجدوا عليك في قسمك هذه

---

١. ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام٢: ٦٠٢و٦٠٣.

الغنائم في قومك وفي سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شيء. حتى قال قائلهم: لقى ـ والله ـ رسول الله قومه.

وعن أنس أن أناساً من الأنصار قالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشاً ويدعُنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم... إذا كانت الشدّة فنحن نُدعى، ويُعطى الغنيمة غيرنا!

فقالﷺ: فأين أنت من ذلك يا سعد؟! فقال: ما أنا إلا امرؤ من قومي. فقال رسول الله: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة. فجمعهم، فخرج رسول الله، فقام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر الأنصار، أولَمْ آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألفَّ بين قلوبكم؟! قالوا: بلى يا رسول الله! ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟! فقالوا: وما نقول؟! وبماذا نجيبك؟! المنّ لله ولرسوله! فقال رسول الله: أما والله، لو شئتم لقلتم فصدّقتم؛ جئتنا طريداً فآويناك؛ وعائلاً فآسيناك، وخائفاً فآمناك، ومخذولاً فنصرناك!

فقالوا: المنّ لله ولرسوله!

فقال رسول اللهﷺ: وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا؛ تألفت بها قوماً؛ ليُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكمْ إلى ما قسم الله لكم من الإسلام، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفسي بيده، لو أنّ الناس سلكوا شعباً، وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار،

ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»!

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم. وقالوا: رضينا بالله ربّاً، ورسوله قسماً، ثم انصرف.. وتفرقوا... وهكذا انطلقت كلماته صلى الله عليه وآله من قلب صادق، نحو قلوب الأنصار ـ بعد أن نزغ الشيطان في نفوسهم ـ وأعادتهم إلى ما يجب أن يكون عليه الأنصاريون الذين آووا ونصروا وبذلوا ما عندهم في سبيل الله ونصرة رسوله، بعد أن ضرب صلى الله عليه وآله لهم صورة مؤثرة: قوم يبشرون بالإيمان يقابلهم قوم يبشرون بالجِمال، وقوم يصحبهم رسول الله يقابلهم قوم يصحبهم الشاة والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصور، وأدركوا أنهم وقعوا في خطإ ما كان لأمثالهم أن يقع فيه، فانطلقت حناجرهم بالبكاء ومآقيهم بالدموع، وألسنتهم بالرضا، وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النبي صلى الله عليه وآله الحكيمة في مخاطبتهم.[1]

لقد امتصَّ ذاك المنطق النبوي ما داخل نفوسهم على رسول الله صلى الله عليه وآله، واقتلعت تلك المقالة وأطفأت فتنةً كادت تتلوث بها نفوسهم ونفوس آخرين..

هذه الفتنة التي أشعل فتيلها زعيم المنافقين، فقد روي عن ابن

---

١. السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث لعلي محمد محمد الصلابي، عن كتاب المجتمع المدني في عهد النبوة :٢١٩ بتصرف.

عباس في قصة قسم غنائم حنين: أن النبيّ ﷺ لما قسم على المؤلفة قلوبهم ما قسم، قال عبد الله بن أبيّ ابن سلول للأنصار: قد كنت أخبرتكم أنكم ستولون حرها ويلي بردها غيركم، فتكلمت الأنصار.[١]

أنْ يَغُلّ أو يُغَلّ!

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.[٢]

من الفعل غَلَّ... وغَلَّ فلان غُلُولاً وأغلَّ: خان في المغنم وغيره؛ أو هو الأخذ من الغنيمة قبل القسمة..

والغُلُولُ في المغنم أصله أن الرجل كان إذا اختار من المَغنَم شيئاً غَلَّه؛ أي أدخله في أضعاف متاعه وستَره، فسُمي الخائنُ غالاً، يقال: غللت الشيء فانغَلَّ أي أدخلته، ومنه قيل للماء الجاري بين خلال الشجر غلَلَ، وقيل: فلان يتغلغل إلى كذا؛ أي يتوصل إليه بالدخول في أسبابه. والأصل يتغلَّل، فأبدلوا من إحدى اللَّامات غيناً كما قالوا يتكمكم والأصل يتكمَّم من الكمة وهي القلنسوة.[٣]

---

١. أنظر تاريخ الإسلام، للذهبي ١ : ٦٠١ – ٦٠٣ .

٢. آل عمران : ١٦١.

٣. غريب الحديث، لابن قتيبة الدينَوري، تحقيق الدكتورعبدالله الجبوري١: ٢٢٧.

وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾.

وفيها قراءتان:

فتح الياء وضم الغين.

ضمّ الياء وفتح الغين.

فمن قرأ يَغُلّ فمعناه يخون. يقال غَلّ في الغنيمة يغل إذا خان فيها وأغل بمعناه وقال النمر بن تولب:

جَزَى اللَّهُ عَنّا جَمْرَةَ بنْتَ نَوْفَلٍ جَزاءَ مُغِلّ بالأَمانَةِ كاذِبِ

بها سَألتْ عَنِّي الوُشاةَ لِيَكْذِبُوا عَليَّ وَقَد أوْلَيْتُهَا في النّوَائِبِ

ومن قرأ يُغَلّ فمعناه على وجهين أحدهما: ما كان لنبيٍّ أن يُخوَّن، أي ينسب إلى الخيانة أي يقال له: غللتَ.

والآخر: ما كان لنبيّ أن يُخان، بمعنى يسرق منهُ ويؤخذ من الغنيمة التي حازها، ويكون تخصيص النبيّ بذلك تعظيماً للذنب..

إذن فلا على القراءة الأولى، و لا على الثانية بوجهيها، يصحُّ أن يُقصد النبيّ بها، بل هو من أكبر المحرمات التي تتنافى مع النبوة وخصائصها، فهو رسول السماء وأمينها، والعدل فرع الأمانة التي أناطتها السماء بالمؤمنين فضلاً على نبيّ الله، وقد أثنت آيات قرآنية على ذاته المقدسة وأخلاقه المباركة وطهارته...

يقول الشيخ الطبرسي: ﴿وما كان لنبيٍّ أن يغل﴾، وتقديره وما كان لنبيّ الغلول؛ لأن أن مع الفعل بمعنى المصدر أي لا تجتمع النبوة والخيانة..

ولهذا أسرعت السماء ـ كما يقول سيد قطب ـ لبراءته بهذه الآية ممَّ اتهم به وبكلا القراءتين والوجوه، ونفت ذلك لا فقط عنه بل عن الأنبياء عامة، أن يحتجزوا شيئاً من الأموال والغنائم، أو يقسموا لبعض الجند دون بعض، أو يخونوا في شيء، ﴿وما كان لنبيٍّ أن يغل﴾، ما كان له. فهو ليس من شأنه أصلاً ولا من طبعه ولا من خلقه. فالنفي هنا نفي لإمكان وقوع الفعل. وليس نفياً لحله أو جوازه.

فطبيعة النبي الأمينة العادلة العفيفة لا يتأتي أن يقع منها الغلول ابتداء.. وفي قراءة: ﴿يُغَلَّ﴾، على بناء الفعل لغير الفاعل. أي لا يجوز أن يخان. ولا أن يخفي عنه أتباعه شيئاً.. فيكون نهياً عن خيانة النبي في شيء.

لماذا خصَّ بالذكر؟

يقول الشيخ الطبرسي: وخصَّهُ بالذكر وإن كان لا يجوز أن يغل غيره من إمام أو أمير للمسلمين لوجهين أحدهما: لعظم خيانته وأنها أعظم من خيانة غيره... والآخر: أن النبيَّ إنما خصَّ بالذكر؛ لأنه القائم بأمر الغنائم، فإذا حرمت الخيانة عليه وهو صاحب الأمر، فحرمتها على غيره أولى وأجدر.[١]

لقد اتهم رسول الله صلى الله عليه وآله كما في أسباب نزول هذه الآية؛ وقد

---

١. أنظر مجمع البيان، بتلخيص؛ وفي ظلال القرآن، لسيد قطب : الآية.

اختلفوا فيمن نزلت وفي أي مكان: بدر أو أحد أو حنين.. حين راحت الساحة يومذاك تعجُّ بالاتهامات؛ حتى وصلت ببعضهم الجرأة وسوء الخلق أن يتهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالخيانة؛ فتارةً يتهم بسرقة قطيفة حمراء يوم بدر من المغنم، وأخرى يتهم بسرقة مخيط، وثالثة يتهم بسوء التوزيع أي يطعن بعدله وصدقه واستقامته، ورابعة بكتمان الوحي...!!! من قبل من؟! من قبل بعض من هداهم للإسلام، وهو يسمع ذلك ويرى، تهمٌ لم يتهمه بها مشركو الجاهلية الأولى، ولم يجرأ أهل مكة وغيرها من تخوينه أبداً، بل كانوا يسمونه الصادق الأمين، ويأتمنونه على أموالهم، نعم اتهموه بأنه ساحر وشاعر ومجنون وكاهن وكذاب... بعد أن دعاهم إلى توحيد الله تعالى ونبذ الشرك وأصنامه... عناداً وتكبراً وخوفاً منهم على سلطانهم ومصالحهم...